قضية التقليد والتجديد في الشعر العباسي

يُعدّ العصر العباسي (132هـ – 656هـ) من أزهى عصور الأدب العربي على الإطلاق، فقد بلغ فيه الشعر درجة عالية من النضج الفني والتنوع الموضوعي.

وفي هذا العصر، برزت قضية التقليد والتجديد كأحدى أهم القضايا النقدية والأدبية، إذ وجد الشعراء أنفسهم بين تراث ضخم تركه شعراء الجاهلية وصدر الإسلام والأمويين من جهة، وبين واقع حضاري جديد تميّز بالمدنية والانفتاح الثقافي من جهة أخرى.

ومن هنا نشأ الصراع بين المحافظة على التراث الشعري القديم، والسعي إلى تطويره بما يناسب روح العصر.

أولاً: الخلفية التاريخية والثقافية

عرف العصر العباسي تغيرات جذرية في حياة العرب، فقد: قامت دولة مترامية الأطراف عاصمتها بغداد، مركز للعلم والفكر والفن.

ازدهرت في هذا العصر العلوم والفلسفة والترجمة، واطّلع العرب على الثقافات الفارسية واليونانية والهندية. واختلطت الأعراق وتنوعت البيئات، فنتج عن ذلك تحول في الذوق الفني واللغة والمضمون. وفي هذا الجو، تطور الشعر من حيث الأفكار، والأسلوب، والأغراض، وأصبح أكثر عمقًا وتنوعًا، لكنه لم ينفصل تمامًا عن الجذور العربية الأصيلة.

ثانيًا: مفهوم التقليد والتجديد

1- التقليد (المحافظة): هو التمسك بالأساليب والموضوعات القديمة التي ورثها الشعراء عن أسلافهم، مثل: الوقوف على الأطلال ووصف الناقة والرحلة والفخر والمدح والهجاء بالطابع القبلي.

وقد كان بعض الشعراء يرون في هذا النوع من الالتزام حفاظًا على هوية الشعر العربي وأصالته.

2- التجديد: هو محاولة تجاوز القوالب القديمة وتطوير الشعر في الشكل والمضمون، بما ينسجم مع التطور الحضاري والاجتماعي للعصر العباسي.

وقد شمل التجديد:

- الموضوعات: إدخال موضوعات جديدة (الزهد، الخمر، اللهو، الفلسفة، الصوفية، السياسة.

- الأسلوب: تنويع الصور، ودقة التعبير، والاهتمام بالموسيقى اللفظية.

البناء الفني: تجاوز المقدمات الطللية، وربط أجزاء القصيدة بوحدة فكرية وفنية.

ثالثًا: مظاهر التقليد في الشعر العباسي

رغم التغيرات، ظلّ بعض الشعراء يحافظون على التراث القديم ويستلهمونه، ومن أبرز مظاهر التقليد:

- محاكاة القصيدة الجاهلية في بنائها التقليدي (الوقوف على الأطلال، الرحلة، الغرض الأساسي). كما فعل الشاعر مروان بن أبي حفصة الذي سار على نهج زهير وجرير في مدائحهما.

- الاهتمام بالفخر القبلي والاعتزاز بالأنساب، رغم ضعف العصبية القبلية.

– استخدام الألفاظ الجزلة البدوية البعيدة عن الترف الحضري.

– الاعتماد على الصور الجاهزة التي توارثها الشعراء في وصف الطبيعة أو المدح أو الرثاء.

ومن أمثلة ذلك قول البحتري في مديحه للخليفة المتوكل على الله العباسي:

وأنتَ الشموسُ إذا ما أضاءتْ وأنتَ السحابُ إذا ما انهمى

فقد استخدم صورًا مألوفة من التراث الشعري القديم.

رابعًا: مظاهر التجديد في الشعر العباسي

1– التجديد في الموضوعات:

تعددت موضوعات الشعر وتنوعت تبعًا لتنوع الحياة، ومن أهمها:

– شعر الزهد والتصوف: نتيجة الترف المفرط والصراع السياسي، مثل شعر أبي العتاهية.

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقصانُ فلا يُغرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

– شعر اللهو والمجون: ظهر مع حياة القصور والترف، واشتهر به أبو نواس.

دعْ عنكَ لَومي فإنَّ اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانت هيَ الداءُ

– الشعر الفلسفي والتأملي: خصوصًا عند أبي العلاء المعرّي، الذي تناول قضايا العقل والمصير والوجود.

– الشعر السياسي والاجتماعي: عبّر عن مواقف الأحزاب والتيارات الفكرية (كالشيعة والزنادقة والبرامكة وغيرهم).

2- التجديد في الشكل والأسلوب:

من مظاهر التجديد في الشكل والأسلوب:

- تحرير القصيدة من وحدة الغرض، والانتقال إلى وحدة الموضوع والفكرة.

- الاهتمام بالتصوير الفني والتشبيهات الدقيقة المستمدة من حياة الحضارة لا من البادية.

- استخدام الألفاظ السهلة الرقيقة المتناسبة مع روح العصر.

- ظهور المقطعات الشعرية والأبيات القصيرة التي تناسب الغناء والمجالس.

3- التجديد في اللغة والموسيقى:

- ظهور الموشحات والأزجال في الأندلس لاحقًا، لكنها متأثرة بالروح العباسية.
- الاهتمام بالموسيقى الداخلية في الشعر (التكرار، الجناس، الطباق، السجع...).

خامسًا: أبرز الشعراء ودورهم

- أبو نواس: يتسم بالتجديد، وهو شاعر ثائر على المقدمات الطللية، كمادعا إلى شعر الحياة والواقع.

- أبو العتاهية: يتسم بالتجديد الأخلاقي، تناول الزهد بلغة قريبة من الناس، متحررة من الصنعة.

- البحتري: اتسم بالتقليد الجمالي وحافظ على فخامة اللفظ ورونق الصورة القديمة.

- أبو تمام: اتسم بالتجديد في الفكر والصورة واعتمد على عمق المعنى وكثافة المجاز.

- المتنبي: جمع بين التقليد والتجديد، كما طور معاني الفخر والحكمة وصاغها بأسلوب عبقري.

– ابن الرومي: اتصف بالتجديد الواقعي حيث رسم أدقّ الصور للحياة الاجتماعية والنفسية.

سادسًا: موقف النقاد من التقليد والتجديد

النقاد المحافظون (مثل ابن قتيبة في الشعر والشعراء) كانوا يرون أن خير الشعر ما وافق نهج القدماء، معتبرين أن التجديد خطر على اللغة والذوق.

النقاد المجددون رأوا أن الإبداع لا يتحقق إلا بالخروج من القوالب الجاهزة، كما عبّر عن ذلك قدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني من خلال حديثهم عن البلاغة والمعنى.

خلاصة:

لقد شكّلت قضية التقليد والتجديد في الشعر العباسي نقطة تحول في مسار الشعر العربي كله. فلم يكن التجديد رفضًا للقديم، ولا كان التقليد جمودًا مطلقًا، بل كان تفاعلًا بين الأصالة والمعاصرة.

ومن هذا التفاعل وُلد شعر عباسي عظيم جمع بين عمق التراث العربي وروح الحضارة الإسلامية الجديدة، فكان أساس النهضة الأدبية في العصور اللاحقة.

مراجع مقترحة للبحث والتوسع:

شوقي ضيف: العصر العباسي الأول.

إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب.

عبد العزيز عتيق: تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي.

بدوي طبانة: الشعر العباسي: قضاياه وفنونه.